
حين
يصبح
الصمت
حياة
الكاتبة
هبيات بخيت عبدالهادى محمد

عندما يصبح الصمت حياة

ليس كل ما يُكتب يُكتب ليُفهم...

فبعض الحكايات تُولد من أماكن لا تصلها اللغة، ولا تُنقذها الكلمات.

هذه ليست قصة فتاة بعينها، بل أثرُ إنسانٍ ظلّ يحاول أن ينجو من نفسه، حتى اكتشف أن النجاة ليست دائمًا خروجًا من الألم، بل أحيانًا شكلٌ آخر من البقاء داخله.

هنا لا توجد بطلة واضحة، ولا بداية يمكن الإمساك بها، ولا نهاية يمكن التنبؤ بها.

فقط حالة ممتدة من الشعور، تتكرر بصيغ مختلفة، حتى يفقد التكرار معناه، ويصبح هو الحياة نفسها.

هذه الصفحات ليست لتخبرك ماذا حدث...

بل لتريك كيف يمكن لشيءٍ لا يُرى أن يظل حيًا داخل إنسان، لسنواتٍ طويلة، دون أن يلفت انتباه العالم.

عندما يصبح الصمت حياة

لا يولد الإنسان حزينًا...

لكن هناك أرواحًا تُرهقها الحياة مبكرًا، حتى تكبر وهي لا تعرف شكل الطمأنينة.

كانت تظن أن الحزن شعورٌ عابر، ثم اكتشفت متأخرةً أنه قد يتحول إلى وطن،

وأن بعض الأوطان لا يُغادرها أصحابها أبدًا.

اسمها لم يكن مهمًا...

لأن الحزن لا ينادي الناس بأسمائهم، بل بما فقدوه.

كانت تعيش كما يعيش الجميع؛ تستيقظ، تمشي، تبتسم إذا اضطرت، وتتحدث حين يُطلب منها الحديث.

لكن داخلها، كانت هناك فتاةٌ أخرى، تجلس في زاويةٍ معتمة من روحها، تبكي منذ سنوات، ولم يسمعها أحد.

لم تكن تخشى الوحدة...

كانت تخشى أن يأتي يومٌ لا تتذكر فيه كيف كانت قبلها.

وذلك اليوم... جاء.

لم يحدث فيه شيءٌ استثنائي.

لم تمت فيه أحلامها دفعةً واحدة، ولم تسمع خبرًا غيّر حياتها، ولم ينكسر قلبها في لحظةٍ واحدة.

بل كان انطفاءً بطيئًا...

انطفاءً لا يراه أحد.

عندما يصبح الصمت حياة

بدأت تفقد دهشتها بالأشياء، ثم فقدت رغبتها في الحديث، ثم صار الصمت المكان الوحيد الذي تشعر فيه بأنها لا تضطر إلى تمثيل نفسها.

كانت كلما نظرت إلى المرآة، رأت وجهًا يشبهها، لكنه لا يحملها.

وكأن المرأة التي تنظر إليها من خلف الزجاج، قد سبقتها إلى الحزن بسنوات.

كانت تسأل نفسها كل ليلة:

"كيف يستطيع الإنسان أن يستيقظ كل يوم، وهو يشعر أنه انتهى منذ زمن؟"

لكن الليل لم يكن يجيب...

كان يكتفي بأن يضيف إلى قلبها طبقةً جديدة من الصمت.

مرت الأيام...

ثم الشهور...

ثم الأعوام...

وكان الحزن يكبر بصمت، حتى لم يعد شعورًا يزورها بين حينٍ وآخر، بل أصبح اللغة التي تفهم بها الحياة.

لم تعد تنتظر أن يطرق أحدٌ بابها، ولا أن يسألها أحد: "كيف حالك؟"

فقد أدركت أن بعض الإجابات لا يحتملها البشر،

وأن أكثر الآلام صدقًا هي تلك التي لا تجد كلماتٍ تكفيها.

وفي كل ليلة، كانت تفتح نافذتها، لا لتتنفس...

بل لتتأكد أن العالم ما زال موجودًا.

أما هي...

عندما يصبح الصمت حياة

فلم تكن واثقةً إن كانت ما تزال موجودة حقًا، أم أنها منذ سنوات، أصبحت مجرد ظلٍ يمشي،

بينما بقيت روحها عالقةً في مكانٍ لا يعرفه أحد.

ومنذ ذلك الحين...

لم تعد تحسب عمرها بالسنوات.

كانت تحسبه بعدد الليالي التي نامت فيها وقلبها مثقل، وبعدد الصباحات التي استيقظت فيها دون أن تجد سببًا يجعلها تنهض، ثم نهضت رغم ذلك.

كانت تقول في سرّها:

"ليس مؤلمًا أن يرحل الناس...

المؤلم أن يرحل كل شيء من داخلك، بينما تبقى أنت كما أنت،

لا تستطيع الرحيل حتى عن نفسك."

كان الجميع يظن أنها أصبحت أقوى.

لكن الحقيقة أن الإنسان لا يصبح قويًا بعد كثرة الألم...

بل يصبح أقل قدرةً على التعبير عنه.

كانت تبتسم، لا لأنها سعيدة، بل لأنها نسيت كيف يبدو وجهها من دون ابتسامةٍ مصطنعة.

وتضحك أحيانًا، لا لأن شيئًا أضحكها، بل حتى لا يسألها أحد عن سبب صمتها.

وفي كل مرةٍ تعود فيها إلى غرفتها، كانت تشعر أن الجدران تعرفها أكثر من البشر.

كانت تجلس في الزاوية نفسها، تحدّق في السقف طويلًا، وتهمس:

"هل يمكن لروحٍ أن تموت...

عندما يصبح الصمت حياة

ويبقى الجسد يؤدي ما اعتاد عليه؟"

ثم يسقط الصمت من جديد...

ذلك الصمت الذي لم يكن خاليًا، بل كان ممتلئًا بكل الكلمات التي لم تستطع يومًا أن تقولها.

ومع مرور العمر، اكتشفت أن الحزن لا يقتل الإنسان دفعةً واحدة.

إنه أكثر قسوةً من ذلك...

إنه يتركه حيًا، ليرى كيف يهت كل شيءٍ أحبه، وكيف يتساقط ما كان يؤمن به، وكيف يصبح قلبه غريبًا عنه.

وفي نهاية كل ليلة، كانت تغمض عينيها، لا انتظارًا للنوم...

بل هربًا من يومٍ تعرف أنه سيعود غدًا، بالوجع نفسه، والصمت نفسه، والفراغ نفسه...

وكأن الزمن توقف عند لحظةٍ لم يلحظها أحد، إلا قلبها.

ومرَّت أعوامٌ أخرى...

حتى أصبحت لا تتذكر متى بدأ كل هذا.

كان الحزن في البداية ضيفًا، ثم صار رفيقًا، ثم انتهى به الأمر أن يصبح الشيء الوحيد الذي لم يتركها.

لم تعد تخاف أن تُخذل...

لأنها لم تعد تنتظر شيئًا أصلًا.

كانت تجلس أمام نافذتها كل ليلة، تراقب الناس يعودون إلى بيوتهم، والأضواء تُطفأ بيتًا بعد بيت، ثم تهمس لنفسها:

"كم هو غريب... الجميع يجد طريقًا يعود إليه، إلا أنا. حتى وأنا داخل غرفتي، أشعر أنني ما زلت تائهة."

عندما يصبح الصمت حياة

وفي بعض الليالي، كانت تشعر أن قلبها متعب إلى درجة أنه لم يعد قادرًا حتى على الانكسار.

فبعض القلوب لا تتحطم...

بل تتآكل ببطء، حتى لا يبقى منها سوى صدى النبض.

كانت تنظر إلى يديها طويلًا، وتقول:

"كل شيء فيَّ يكبر... إلا الحياة."

كبر عمرها...

وكبر صمتها...

وكبر ذلك الفراغ الذي لم يملأه أحد.

حتى الأحلام التي كانت تخبئها في قلبها، نسيت شكلها.

لم تمت...

لكنها لم تعد تعرف ماذا يعني أن تكون حيّة.

أصبحت الأيام تمر عليها كما تمر الريح على بيتٍ مهجور؛ لا تُغيّر فيه شيئًا، لأنه فقد كل ما يمكن أن يتغير.

وكانت كلما ظنت أن الحزن بلغ آخر حدوده، اكتشفت أن للحزن أعماقًا أخرى،

وأن القلب قادرٌ على حمل وجعٍ أكبر مما يتخيل.

وفي ليلةٍ باردة، نظرت إلى السماء طويلًا، ثم قالت بصوتٍ خافت:

"ربما لم يكن قدري أن أجد السعادة...

ربما كان قدري أن أتعلم كيف يعيش الإنسان، وقلبه مفقود."

عندما يصبح الصمت حياة

ثم عاد الصمت...

ذلك الصمت الذي لم يكن نهايةً للحكاية.

بل كان بدايتها من جديد...

لأنها في صباح اليوم التالي، ستستيقظ، وسترتدي وجهها المعتاد،

وستسير بين الناس كما لو أن شيئًا لم يكن...

بينما في داخلها، سيبدأ الحزن من أول السطر... مرةً أخرى.

وأصبحت الأيام تدور حولها كما تدور عقارب الساعة...

تعود إلى المكان نفسه، دون أن تصل إلى شيء.

كانت تظن أن الزمن يداوي الجراح، ثم اكتشفت أن الزمن لا يفعل ذلك دائمًا؛ أحيانًا يمنح الجرح عمرًا أطول فقط، حتى يتعلّم كيف يعيش داخل صاحبه.

كانت تحمل قلبها كما يحمل الإنسان شيئًا مكسورًا يخشى أن يسقط، مع أنه يعلم أنه تحطم منذ زمن.

لم يعد يؤلمها أن يخذلها أحد...

بل كان يؤلمها أنها لم تعد تنتظر الوفاء من أحد.

كانت تشعر أن شيئًا ما انطفأ في أعماقها، ليس الحب، ولا الأمل، بل تلك النسخة القديمة منها... الفتاة التي كانت تصدّق أن الغد يحمل معها شيئًا مختلفًا.

وفي كل ليلة، كانت تجلس أمام نافذتها، تحدق في السماء، ثم تهمس:

"هل يشعر القمر بالوحدة، لأنه يضيء للجميع، ولا يجد من يضيء له؟"

ثم تبتسم ابتسامةً باهتة، وكأنها أدركت أن السؤال لم يكن عن القمر...

عندما يصبح الصمت حياة

بل عنها.

ومع مرور العمر، لم تعد تخشى النهاية.

كانت تخشى أن يبقى كل شيء كما هو.

أن تستيقظ بعد عشر سنوات، فتجد قلبها في المكان نفسه، والحزن في المكان نفسه، والفراغ في المكان نفسه.

وكان هذا ما حدث.

لم يتغير شيء.

كانت الحياة تمضي...

أما هي، فكانت تدور حول الوجع نفسه، حتى شعرت أن الحزن لم يعد يسكن قلبها، بل صار القلب نفسه.

وفي آخر الليل، حين يسكت كل شيء، كانت تسمع نبضها بوضوح...

لا لأنه كان قويًا...

بل لأنه كان الصوت الوحيد الذي بقي ليشهد أن داخل هذا الجسد روحًا ما زالت تقاوم،

لا أملاً في النجاة، وإنما لأنها لم تجد طريقةً أخرى للتوقف عن المقاومة.

وهكذا...

لم تكن تعيش بحثًا عن الفرح...

بل كانت تؤجل انهيارها إلى الغد.

ثم إلى الغد الذي يليه.

عندما يصبح الصمت حياة

ثم إلى غدٍ آخر...

حتى أصبح العمر كله سلسلةً طويلة من الغد المؤجل، بينما الحزن وحده...

لم يؤجل نفسه يومًا.

وفي أحد الأيام...

أدركت أنها لم تعد تخاف من الحزن.

كانت تخاف من اليوم الذي قد تستيقظ فيه، فلا تشعر به.

لأن الحزن، رغم قسوته، كان آخر دليلٍ على أن شيئًا ما داخلها ما زال حيًا.

جلست أمام المرآة طويلًا.

حدقت في وجهها كما لو أنها تراه للمرة الأولى.

مررت أصابعها على ملامحها، ثم همست:

"كم نسخةً مني ماتت... حتى بقي هذا الوجه؟"

لم يجبها انعكاسها.

فالمرآة لا تعرف إلا الملامح، أما الأرواح فلا يراها الزجاج.

أغلقت عينيها، وعادت بذاكرتها إلى طفلةٍ كانت تضحك من قلبها.

حاولت أن تتذكر صوت تلك الضحكة...

لكنها فشلت.

وكأن الحزن لم يسرق منها الفرح فقط...

عندما يصبح الصمت حياة

بل سرق الدليل على أنه كان موجودًا يومًا.

منذ تلك الليلة، لم تعد تنظر إلى المستقبل.

كانت تشعر أن الغد ليس إلا نسخةً أخرى من الأمس، وأن الأيام لا تأتي إليها، بل تعود إليها.

اليوم نفسه...

الليل نفسه...

الغصة نفسها...

حتى الدعاء الذي كانت ترفعه إلى السماء، صار يخرج بالكلمات نفسها،

وكأن الزمن توقف عند أمنيةٍ لم تُستجب، وبقيت هي تدور حولها إلى ما لا نهاية.

كانت تشعر أحيانًا أن قلبها يشبه بيتًا احترق منذ سنوات.

لم يعد فيه لهب...

لكن رائحة الاحتراق لم تغادر جدرانه.

وكان الناس، كلما رأوها، قالوا:

"لقد تجاوزت كل ما مرّت به."

ولم يكونوا يعلمون...

أن بعض الجراح لا تُشفى، بل تتعلم كيف تختبئ.

وبعض الأحزان لا تنتهي...

بل تتقن البقاء.

عندما يصبح الصمت حياة

وعندما كانت تعود إلى غرفتها كل مساء، لم تكن تقول: "ليت الغد يكون أجمل."

كانت تقول في سرها:

"إن كان للحزن نهاية... فلماذا لم يجد الطريق إليّ إلا كلما حاولت الهرب منه؟"

ثم يبتلعها الليل مرةً أخرى...

كأنه لم يكن سوى اسمٍ آخر للحياة التي تعيشها.

وفي ليلةٍ أخرى...

لم تبكِ.

كان البكاء رفاهيةً لم يعد قلبها يملكها.

جلست في عتمة غرفتها، لا تسمع سوى صوت الساعة، وكأنها لا تعدّ الدقائق... بل تعدّ ما تبقى من صبرها.

تساءلت بصوتٍ خافت:

"كيف يستطيع الوقت أن يمضي بهذه السرعة خارج النافذة، بينما يتوقف تمامًا داخل الإنسان؟"

ولم يكن هناك جواب.

فالصمت كان أصدق من كل الإجابات.

مدّت يدها نحو دفترها القديم.

قلّبت صفحاته ببطء، فوجدت كلماتٍ كتبتها منذ أعوام.

كانت مليئة بالأحلام...

عندما يصبح الصمت حياة

بمدنٍ كانت تريد أن تزورها، وأشخاصٍ كانت تؤمن أنهم سيبقون، وحياةٍ كانت تظن أنها تنتظرها في مكانٍ ما.

أغلقت الدفتر...

ليس لأنها انتهت من قراءته، بل لأنها لم تعرف صاحبة تلك الكلمات.

شعرت أن الفتاة التي كتبتها ماتت منذ زمن، وأنها هي مجرد امرأةٍ تحمل اسمها.

وقفت أمام النافذة.

كانت السماء صافية على غير عادتها.

تأملت النجوم طويلًا، ثم همست:

"كم من الأشياء تبقى في مكانها... بينما نحن وحدنا نتلاشى؟"

في تلك اللحظة، لم تشعر بأنها حزينة.

وكان ذلك أكثر ما أخافها.

لأن الحزن حين يطول، يتوقف عن أن يكون شعورًا...

ويصبح طبيعةً ثانية.

يصبح الهواء الذي تتنفسه، والصوت الذي تفكر به، والوجه الذي تراه كل صباح.

ومنذ تلك الليلة، لم تعد تحاول الهرب منه.

كانت تعرف أنه إذا خرجت إلى العالم، سيعود معها.

وإذا أغلقت الباب، سيجلس إلى جوارها.

وإذا نامت، سيسبقها إلى أحلامها.

عندما يصبح الصمت حياة

وإذا استيقظت...

سيكون أول من يفتح عينيه معها.

وهكذا...

لم تعد الأيام تُضيف إلى عمرها شيئًا.

كانت تضيف فقط طبقةً جديدة من الصمت، فوق طبقاتٍ قديمة، حتى صار قلبها يشبه بحرًا هادئًا من الخارج...

وفي أعماقه، غرقٌ لا ينتهي.

لم تعد تنتظر شيئًا.

لا فرحًا، ولا خلاصًا، ولا حتى تغييرًا صغيرًا في ملامح الأيام.

كانت قد فهمت متأخرةً أن بعض القصص لا تُكتب لتصل إلى نهاية، بل لتستمر في الدوران داخل صاحبها إلى الأبد.

صارت تستيقظ كل صباح بنفس الثقل، وبنفس الصمت، وبنفس الفكرة الأولى التي لا تغادرها:

"ما الذي يجعلني أستمر؟"

ثم تنهض... دون إجابة.

وفي كل مساء، تعود إلى الغرفة نفسها، والنافذة نفسها، والظل نفسه الذي صار يعرفها أكثر مما تعرف نفسها.

لم يعد في داخلها صراع واضح بين الفرح والحزن...

عندما يصبح الصمت حياة

بل صار هناك شيء واحد فقط: امتداد طويل من الإحساس نفسه، لا يتغير، لا يرتفع، لا ينكسر أكثر لأنه مكسور أصلًا.

وفي ليلةٍ باردة، جلست طويلًا دون أن تفعل شيئًا.

لا كتابة، لا بكاء، لا حديث داخلي حتى.

فقط صمت.

ثم همست، كأنها تتحدث إلى شيءٍ لا يُرى:

"حتى الألم... تعبت منه."

وهنا فقط أدركت أن الحزن لا يحتاج إلى أن ينتصر.

يكفيه أن يستمر.

في الصباح التالي، رآها الناس كما كانت دائمًا.

تمشي بهدوء، وجهها ثابت، وابتسامتها جاهزة عند الحاجة، وصوتها لا يفضح شيئًا.

لم يسألها أحد.

ولم تعد تنتظر أن يسألها أحد.

لكن شيئًا واحدًا كان قد تغيّر دون أن يلاحظه العالم...

لم تعد ليان تشعر أنها تعيش داخل حياتها.

كانت تشعر أنها تشاهدها فقط.

ومن بعيد.

وكأنها قصةٌ تُكتب عنها، لا تُكتب بها.

عندما يصبح الصمت حياة

وهكذا

لم تنتهِ الحكاية.

لأنها لم تصل أصلًا إلى نهاية.

بل استمرت كما هي...

كل يومٍ يبدأ بالحزن نفسه، وينتهي بالصمت نفسه، ويتركها في المنتصف تمامًا...

حيث لا بداية تُغلق، ولا نهاية تُفتح.

فقط حياةٌ تمشي...

وصاحبتها تبقى خلفها، تحاول أن تلحق بها منذ زمنٍ طويل، دون أن تصل.

الخاتمة

وفي النهاية، أُغلق الكتاب بهدوء.

لم يحدث شيء كبير... فقط انتهت الصفحات.

لكن بعض النهايات لا تكون واضحة، لأنها لا تُغلق في الورق بل في القلب.

نضع الكتاب جانبًا، ونظن أننا انتهينا، بينما هو يبقى معنا بشكلٍ خفيف لا يُرى.

وهكذا نفهم أن الختم الحقيقي ليس إغلاق القصة...

بل الإحساس الذي يبقى بعد أن تنتهي الكلمات.